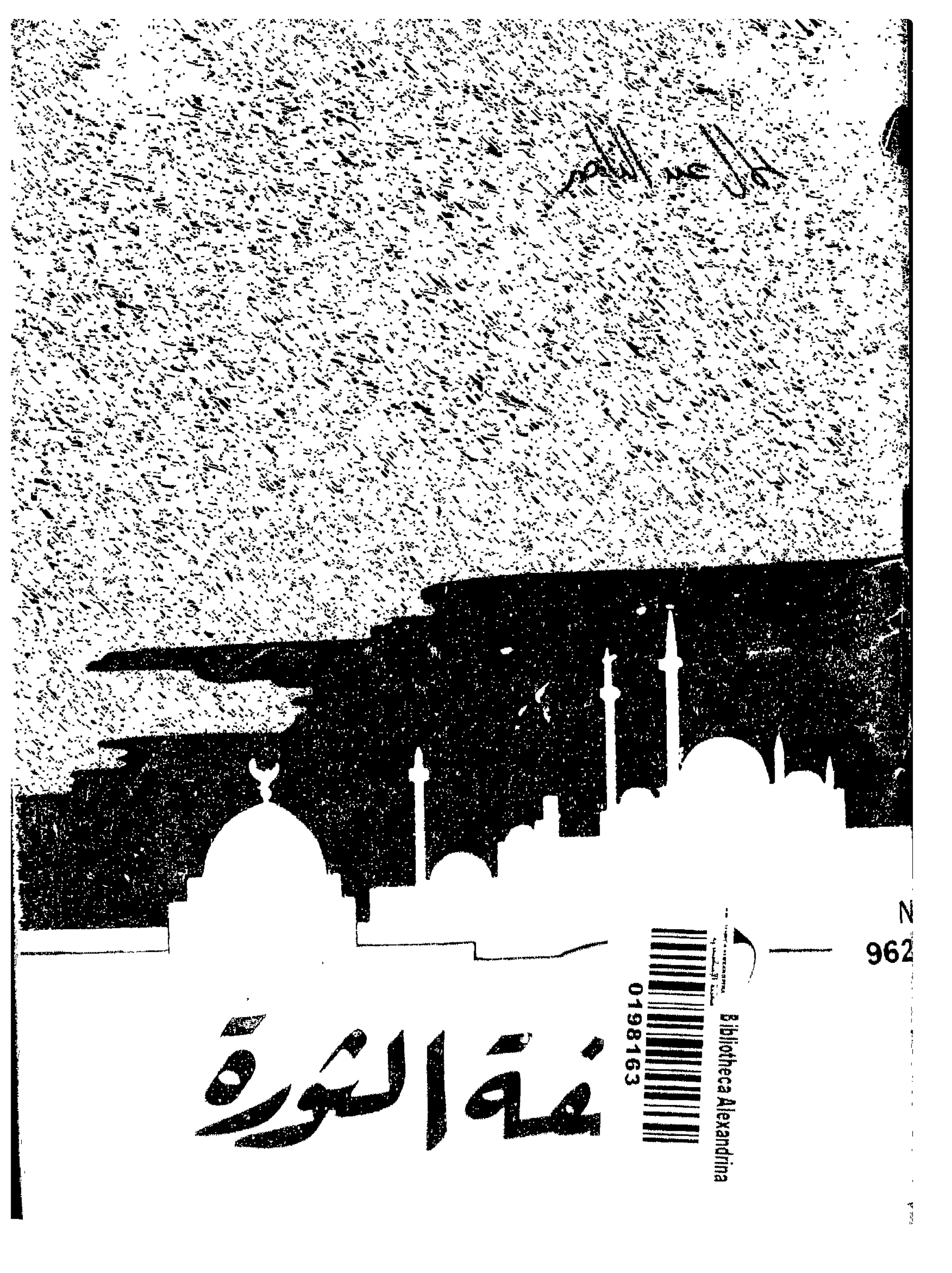
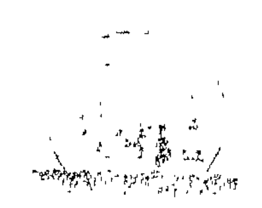

فة الثورة

جمال عبد الناصر





فلسفة الثورة

الجزء الأول

ليست فلسفة ـ محاولات لم تتم ـ ليست مجرد تمرد ـ كنا في فلسطين واحلامنا في مصر ـ احمد عبد العزيز قبل ان يموت ـ درس من اسرائيل ـ ايام التلمذة ـ الحقيقة والفراغ ـ لماذا كان لابد أن يتحرك الجيش ـ الصورة الكاملة ـ الطليعة والجموع ـ أقصى أماني ـ نموذج من أعضاء مجلس الثورة ـ ازمات نفسية ـ ثورتان في وقت واحد ـ لكيلا يقع تصادم على الطريق.

قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أقف قليلاً عند كلمة « فلسفة » ..

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ..

وأنا أحس وأنا واقف حيالها انى أمام عالم واسع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسي برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطىء الذى أقف فيه ، شاطئا آخر أنتهى اليه ..

والحق انى أريد أن أتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى سأقوله ، ثم أنا أظن انه من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة .

من الصعب لسببين :

أولهما أن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء (١) او كذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح اى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجرا فوق حجر ..

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب ..

---

(١) يعنى انه لايمكن ان تقع حادثة من حوادث التاريخ دون أن يكون لها سبب او أسباب من الماضي ، لان التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، كل حلقة منها متصلة بالحلقة التى قبلها والحلقات التى بعدها ، ولا يمكن أن يكون بين هذه الحلقات فراغ ليس فيه الا الهباء .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب ..

* * *

ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ..

ذلك آخر ما يجرى به خيالى ..

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا ، فانى سوف اقول مثلا أن ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر « منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ..

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد على واليا على مصر ، باسم شعبها (١)

---

(١) كان السيد عمر مكرم أول مصرى في التاريخ الحديث ، نادى بحق الشعب في الحرية وفي السيادة . وكان اول شهرته خلال الحملة الفرنسية على مصر . اذ كان من قواد حركة المقاومة الشعبية التى انتهت بجلاء الفرنسيين ، ثم قاد حركة المقاومة ضد طغيان المماليك والباشا العثمانى . وكان محمد على في ذلك الوقت ضابطا لاحدى الفرق العثمانية في مصر ، فانضم الى حركة المقاومة الشعبية . ووثق صلته بالزعيم عمر مكرم ، فانخدع به ورشحه للولاية ، فبايعه الشعب واليا وكتب زعماؤه بذلك الى الخليفة العثمانى في استنبول ، فاقر الخليفة هذه البيعة مكرها ، نزولا على ارادة الشعب . فلما تم لمحمد على ما أراد ، وصار واليا على مصر تنكر للشعب ، وخان عهده للزعماء ، ونفى السيد عمر مكرم الى دمياط ، ثم الى طنطا . فظل منفيا حتى مات .

وصار عرش مصر وراثة لاسرة محمد على ، يتوارثه امير عن امير ، وكان فاروق المخلوع آخر هذه السلسلة ، فابعد عن العرش في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ثم انتهت الملكية واعلنت جمهورية مصر في يونيو سنة ١٩٥٣ ، بعد قرن ونصف قرن من اعتلاء محمد على لعرش مصر .

وقام بمحاولة لم تحقق له الامل الذى تمناه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور (١) .

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الامل الذى تمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ . (٢)

---

(١) كان احمد عرابى ضابطا في الجيش المصرى ، وكان مصريا صميما ، في حين كان اكثر ضباط الجيش من الترك والشركس والارمن والارناؤوط. ولم يكن مسموحا للضباط المصريين أن يتجاوزوا الترقية رتبة معينة ، مهما بلغوا من النشاط والكفاية ، وكانت مرافق البلاد كلها في أيدى الاجانب ، وكان الخديوى توفيق يقربهم ويحتظيهم ويجعل لهم الامتياز والسيادة على أهل البلاد . وكان نظام الحكم استبداديا والضرائب ثقيلة ومجحفة ، وخزانة الدولة خاوية ، والديون التى تورط فيها اسماعيل بحماقة تثقل كاهل الحكومة والاهالى وتجعل للدائنين الاجانب السلطة العليا .. رأى احمد عرابى هذا ، ورآه زملاؤه الضباط المصريون في الجيش ، فاجمعوا امرهم على خطة لمقاومة هذا الطغيان ، ولاصلاح نظام الحكم والاعتراف بحق الشعب في السيادة ..

واجتمع الجيش كله في ميدان عابدين ، ليطلب الى الخديوى باسم الشعب اصلاح أداة الحكم ، وانشاء حكم نيابى ، والحد من سلطة الاجانب .. فاضطر توفيق الى الاستجابة لمطالب الشعب ، وحقق له ما أراد . ثم راح يدبر امره مع الانجليز في الخفاء ، ليقضي على روح المقاومة في الشعب ، وكانت العاقبة كما اراد ، فاحتل الانجليز مصر . واعتقلوا احمد عرابى وزملاءه ، ونفوهم الى احدى جزر المحيط الهندى ، وكان هذا اول الاحتلال الذى جثم باثقاله على صدر الوطن اثنتين وسبعين سنة حتى اكرههم المصريون في سنة ١٩٥٤ على الجلاء .

(٢) في هذه الفترة التى عاشتها مصر بين الثورتين ، في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، انتشرت الافكار الحرة ، وبدا الوعى القومى ينضج . وكان لآراء السيد عبد الرحمن الكواكبى والسيد جمال الدين الافغانى ، اثرها في ايقاظ الوعى ، فآمن الشعب بحقه في الاستقلال والحرية . وبدا يدبر امره لتحقيق هذين المطلبين . وكان من زعماء هذه الفترة محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش .

وكانت هذه الثورة الاخيرة ـ ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ـ محاولة أخرى لم تحقق له الامل الذى تمناه (١) .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين (٢) ، وليس صحيحا كذلك أنها قامت

---

(١) لما احتلت بريطانيا مصر في سنة ١٨٨٢ زعمت أن احتلالها مؤقت ، وانها ستجلو عن مصر حين تستقر أمورها الداخلية ، وظلت على هذا الزعم حتى نشبت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، فكشفت عن خبيئتها وفرضت على مصر الحماية البريطانية ، ولكى تخدر شعور المصريين زعمت أن هذه الحماية مؤقتة كذلك ، وأن ظروف الحرب هى التى فرضتها .

فلما انتهت الحرب في أواخر سنة ١٩١٨ اجمع المصريون على ضرورة انهاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وذهب سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية الى دار المعتمد البريطانى في القاهرة ، مع على شعراوى وعبد العزيز فهمى ، ليطلبوا اليه باسم مصر ، أن ينقل الى حكومته في لندن رغبة المصريين في انهاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ، فلم تطق بريطانيا صبرا على هذا المطلب ، واعتقلت سعد وأصحابه ، ونفتهم الى مالطة ، فكان هذا سببا لاشتعال ثورة سنة ١٩١٩ ، وتعتبر هذه الثورة مرحلة من المراحل الرئيسية في تاريخ العلاقات بين مصر وبريطانيا .

(٢) كانت فلسطين ـ الى الحرب العالمية الاولى ـ جزءا من أملاك الدولة العثمانية فلما نشبت تلك الحرب ، احتلتها بريطانيا باعتبارها من أملاك دولة معادية . ولكى تكسب بريطانيا تأييد العرب لها في تلك الحرب . اعلنت انها سترد اليهم بلادهم وتعترف باستقلالهم ، اذا اعانوها على حرب الترك ، فكان هذا الوعد سببا لانضمامهم الى صف بريطانيا في تلك الحرب ، ولكن بريطانيا لم تكد تبلغ النصر ، حتى تنكرت للعرب ، واعتبرت بلادهم غنيمة حرب ، وفرضت سلطانها على فلسطين ، لتمهد لليهود أن ينشئوا لهم فيها وطنا قوميا ، فثار عرب فلسطين على هذا الوضع ولم يرتضوه ، ولكن بريطانيا لم تبال بثورات العرب المتعاقبة . واخذت تهيىء لليهود في سائر بلاد العالم ، وسائل الهجرة الى فلسطين والاستقرار بها لتكون لهم وطنا ، حتى اجتمع نحو ثلث مليون ، يزاحمون أهل البلاد في أرزاقهم ويزحزحونهم عن أرضهم . فلما بلغ اليهود من الكثرة والقوة في فلسطين هذا المبلغ ، انسحبت منها بريطانيا وتركت العرب الوطنيين =

بسبب الاسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط (١) .
وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال من أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش (٢) .

= واليهود الطارئين يتقاتلون وجها لوجه ، هؤلاء يطمعون في الاستيلاء على وطن لم يكن لهم فيـــه شبر من أرض ، وأولئك يدافعــون عن وطنهم ومثــوى آبائهم واجدادهم .

ولم يكن لعرب فلسطين من القوة ما يهيىء لهم أسباب الغلبة ، فقــررت الدول العربية أن تساعدهم على الظفر بحقهم وطرد العدو الدخيل عن بلادهم .

وبدات فرق المتطوعين المصريين تأخذ مراكزها في ميدان المقاومة بقيــادة ضباط مصريين أحرار .. تطوعوا لبــذل دمائهم في سبيل الابقــاء على عــروبة فلسطين ، وكان لهم بلاء يذكر بالاعجاب .

ثم دخل الجيش المصرى فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأوغل في البلاد وفر اليهود امامه مذعورين يتخلون عن معاقلهم معقلا بعد معقل . وظهرت تباشير النصر القريب ..

في أثنــاء ذلك وقلوب العــرب في شتى بلادهم تخفق بعنف وهم يترقبون الساعة التى تأتيهم فيها انباء النصر الحاسم ، حدثت خيانة كبيرة . كان فاروق ملك مصر المخلوع شريكا فيها ، فوقعت الدول العربية صك الهدنة وهى في أوج انتصارها .. وأفلتت الثمرة الدانية من أيدى العرب ..

(١) في أثنـــاء هـــذه الهدنة التى فرضتها الخيانة على الجيش المصرى والجيوش العربية المنتصرة ، زودت بريطانيا وحلفاؤها اليهود بكل ما يحتاجون اليه من الاسلحة الثقيلة والخفيفة ، ليكونوا على أهبــة كاملة حين تستــأنف الحرب . وكان فاروق وسماسرته خلال ذلك يستولون على أموال الخزانة بدعوى شراء الاسلحة للجيش المرابط في ميدان القتال ، فيأخذونها لانفسهم ، ويرسلون الى الجيش بثمنها أسلحة فاسدة ، تصيب أصحابها ولا تصيب العدو ، فكانوا بذلك عونا لليهود على النصر ، وراحت فلسطين نفسها وغلب عليها اليهود . ولم تزل تحت أيدى اليهود وأهلها مشردون في الفلوات لايجدون مأوى .. !

(٢) كان الضباط الاحرار قد شكلوا هيئتهم قبل ذلك وصاروا قوة ذات أثر في كل فرقة من فرق الجيش ، استعدادا لتخليص البلاد من الطغيان ، ومن الفساد ، ومن الاحتلال البريطانى . وكان فاروق يضع على رأس الجيش جماعة=

انما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم فى فلسطين أو لأن فضيحة الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش ، لما كان الأمر يستحق ان يكون ثورة ، ولكان أقرب الاشياء الى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وان كانت الأسباب التى أدت اليه منصفة عادلة فى حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة . .

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الاسراع فى طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

ان هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ، ففى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الاحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى اذا قلت ان ازمة انتخابات النادى أثارها أكثر من أى شىء آخر نشاط الضباط الأحرار فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم ــ فى حياتى ايضا ــ أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الاحرار موجودا قبلها ، وكانت

= من سماسرته وبطانته هم عناوين الجيش البارزة امام الناس ، فمنهم الرؤساء الكبار ، والقادة العاملون ، وممثلو الجيش في كل مناسبة يراد أن يمثل فيها الجيش ، ومنهم هيئة الادارة في نادى الضباط ، فلما حان موعد الانتخاب لرياسة النادى في سنة ١٩٥١ ، حرص الضباط الاحرار على ابعاد سماسرة فاروق وبطانته من رياسة النادى وانتخبوا رئيسا منهم تحديا لارادة فاروق فطاش صواب فاروق وألغى الانتخاب ، وكان ذلك أول مظهر صريح من مظاهر الخلاف بينه وبين الجيش .

منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الاسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ، ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

وحين أحاول الآن أن استعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين اجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن احلامنا كلهـــا كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا فى خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه ..

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الاحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

فى فلســـطين جاءنى صـــلاح سالم وزكريا محيى الدين (١) واخترقا الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا فى الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقاذه ..

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

ـ هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز (٢) قبل أن يموت ؟

قلت :

---

(١) من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

(٢) فدائى مصرى عظيم . كان ضـــابطا في الجيش المصرى . ثم قاد قوات المتطوعين المصريين للدفاع عن فلسطين . قبل ان تقرر الدول العربية الاشتراك في المعركة ، وكان له بلاء مشهود في كثير من المعارك ، وقضى شـــهيدا في الميـــدان سنة ١٩٤٨ .

ـ ماذا قال .. ؟

قال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق :

ـ لقد قال لى : اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الاكبر هو فى مصر ...

ولم ألتق فى فلسطين بالاصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل .

وانا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى الى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العـدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا أولاء فى هذه الجحور محاصرين . لقد غرر بنا ، ودفعنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح »

وحين كنت أصـــل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ، واقول لنفسى :

هذا هو وطننا هنا ، انه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير ..

ان الذى يحدث لنا هنـــا صورة من الذى يحدث هناك .. صورة مصغرة ..

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به .. ودفع الى معركة لم يعد لهـــا ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح ..

***

واكثر من هذا ، لم يكن الاصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ولم تكن التجارب هى التى قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الأعداء أيضا لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله . . .

ومنذ اشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط اسرائيلى اسمه «يردهان كوهين» ، ونشرتها له جريدة « جويش أوبزرفر » وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم فى فلسطين وكيف استطعنا أن نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم » .

* * *

ثم أن هذا اليوم — اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى — ابعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ (١) الذى كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

---

(١) فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كانت الجيوش الالمانية قد اجتازت حدود مصر الغربية بقيادة روميل تتعقب الجيوش البريطانية المنهزمة . حتى بلغت(العلمين) على مقربة من الاسكندرية ، وادرك الانجليز يومئذ ان آخرتهم فى مصر قد حانت . وكان اشد مايخشونه أن ينضم المصريون الى أعداء بريطانيا ، انتقاما لانفسهم من المظالم التى نالهم بها الاحتلال البريطانى خلال ستين سنة ، فكأنما خيل للانجليز أنهم يستطيعون أن يتقوا هذا الشر ، لو كان على رأس الحكومة المصرية رجل يامنون جانبه ، ويامنون جانب الشعب معه ، فذهب سفيرهم فى ٤ فبراير الى قصر الملك يطلب اليه اسناد رياسة الوزارة الى مصطفى النحاس ، وانذروه ان لم يفعل ، أن يتحمل نتائج رفضه ، ثم زحفت دبابات الانجليز الى قصر الملك، فخضع فاروق وأسند رياسة الوزارة الى مصطفى النحاس استجابة لرغبة بريطانيا .

« ما العمل بعد ان وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين .. ؟

« الحقيقة انى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده ، بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات .. »

وطبعا هذا حاله أو تلك عادته ..

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذاالحادث تأثيرجديد على الروح والاحساس فيه ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد واللهو . أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا — مع ضعفهم الظاهر — ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن ان غدا لناظره قريب .

لقد حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى ..

والواقع أن هذه الحركة .. ان هذه الطعنة ، ردت الروح الى بعض الاجساد ، وعرفتهم ان هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالبا امشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣

وقد عاد الدستور بالفعل — فى سنة ١٩٣٥ (١) .. وأيام كنت

---

(١) لم يكن قصد الملك فؤاد . والانجليز من ورائه — حين اعلن الدستور فى سنة ١٩٢٣ ودعا الشعب الى انتخاب ممثليه فى البرلمان — الا أن يصدع وحدة الشعب ، ويشغله عن امانيه القومية ، وقد تحقق له وللانجليز ما ارادوا من ذلك فتصدعت وحدة الشعب بالمنافسات الحزبية حول مقاعد البرلمان ومناصب الحكم عن أمانيه القومية . وقد تحقق له وللانجليز ما أرادوا من ذلك . =

أسعى مع وفود الطلبة ، الى بيوت الزعماء نطلب منهم ان يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على اثر هذه الجهود ..

وأذكر انني فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديق من اصدقائى ـ قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخى ..

« خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة ..

= تصدعت وحدة الشعب التى زلزلت كيان بريطانيا في سنة ١٩١٩ وصار الشعب احزابا وشيعا يكيد بعضهم لبعض . ويتربص بعضهم لبعض ، وشغلهم الصراع على المناصب عن الكفاح لتحقيق الاستقلال .

ورأى فؤاد الفرصة سانحة في سنة ١٩٣٠ ليسترد الدستور الذى أعلنه في سنة ١٩٢٣ ليعود الى نوع من حكم الفرد مموه بعنوان دستورى زائف ، فاعلن الغاء الدستور واستبدل به دستورا آخر لا يحقق للشعب سلطة ولا سيادة ، وقهر البلاد بالعنف على الاستسلام والرضا . وفرض عليها حكومة استبدادية ، لتنتحل صفة دستورية زائفة ، بضع سنين ، ولكن الشعب لم يخضع ، ولم يتخل عن مثله العليا وامانيه القومية التى يكافح في سبيلها منذ سنين ذات عدد ، فما هو الا أن أتيحت له الفرصة سنة ١٩٣٥ ، حتى ثار ثورة حاطمة ، مطالبا بعودة دستور سنة ١٩٢٣ .

وطأطأ فؤاد راسه للشعب ، كما طأطأ اخوه توفيق من قبل للثورة العرابية ورد للشعب دستور سنة ١٩٢٣ ، ودعاه لانتخاب ممثليه في البرلمان على النظام الذى يرتضيه .. ولكن كما كان خضوع توفيق في سنة ١٨٨١ ، كان خضوع فؤاد من بعد تمهيدا لمعاهدة ١٩٣٦ التى تربط مصر الى عجلة بريطانيا ربطا ابديا لا فكاك منه فعلى اثر عودة الدستور ، تالفت الجبهة الوطنية التى تضم زعماء الاحزاب جميعا لتدخل مع بريطانيا في مفاوضة جديدة تحل المسائل المعلقة بين البلدين ، ثم انتهت هذه المفاوضات الى المعاهدة الابدية التى مزقتها الثورة الشعبية بعد ذلك واكرهت الانجليز على الجلاء الذى لارجعة بعده .

« لذلك عولت على أن أكتب اليـــــك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا .

« قال الله تعالى : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...**))
فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم .. ؟

« ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق .. ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان ، فأين من يهدم هذا البناء .. ؟ »

ثم مضيت فى الخطاب الى آخره ..

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماقى .. ؟

فلو أضيف الى هذا كله ، ان تلك البذور لم تكن كامنة فى اعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلفه فى وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت أن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثانى فهو أننى كنت بنفسى داخـــل الدوامة العنيفة للثورة ..

والذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها ..

وكذلك كنت بايمـانى وعقلى وراء كل ما حـدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ، واذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين اتكلم عن المعانى المستترة وراءه .. ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا شىء يمكن أن يعيش فى فراغ ..

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ..

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ما نتصور نحن انه الحقيقة ، او بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا اليها نفوسنا ..

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل ما فينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق (١) .

وأنا أحاول — بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية — أن أمنع نفسى من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى أى حد سوف يلازمنى التوفيق .. ؟

هذا سؤال .. !

وبعده اريد أن اكون منصفا لنفسى ، ومنصفا لفلسفة الثورة، فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعا ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة (٢) .

* * *

واذن فما الذى أريد أن اتحدث عنه اذا كنت قد استبعدت كلمة « فلسفة » ؟ الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

أولهما مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، حتى منتصف ليل ٢٣ يوليو .

---

(١) يعنى اننا نستطيع أن نحكم على الشيء بدقة تجعل حكمنا عليه قريبا من الحقيقة ، اذا كنا نحن أنفسنا جزءا من هذه الحقيقة ، فان شرط القاضي ان يتجرد والا يحكم في قضية يتصل موضوعها بشخصه أى اتصال ، حتى لايتلون حكمه بلون من ألوان عاطفته .

(٢) يعنى انه مادام التجرد للحكم غير مستطاع ، فان الانصاف يفرض عليه أن يترك الحكم للتاريخ .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر ، بأملها المبهم ، وفكرتها المحددة ، وتدبيرها العملى . موضع التنفيذ العملى فى منتصف ليلة ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب اريد ان اتحدث ..

لطالما الح على خواطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب ان نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ »

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ..

واذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر الجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة .. ؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمرى ، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، وليس على حدوده .. ؟

ومرة اخرى ، دعونى أنبه الى أن الهزيمة فى فلسطين ، والاسلحة الفاسدة وازمة نادى الضباط ، لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ، لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ولكنها ــ كما سبق أن قلت ــ لا يمكن أبدا أن تكون هى الأصل والأساس ..

واذن فلماذا وقع على الجيش هذا الواجب .. ؟

قلت ان هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ..

الح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو

وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ..

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو ..

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله أننا كنا نشعر شعورا يمتد الى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا وأننا اذا لم نقم به نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حماها ..

ولكنى أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ..

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة .

وانا أشهد انه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ..

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ..

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت اظن ان دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل لقد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل الى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى ، من فرط ايمانى به ، حقيقة مادية وليس مجرد تصورات خيال ..

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ..

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان . وخلعت الطاغية ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ..

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال .. !

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ..

وساعتها احسست وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، بل انها من هذه الساعة بدأت ..

كنا فى حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ..

وكنا فى حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف .

وكنا فى حاجة الى العمـــــل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل . ومن هنا ، وليس من أى شىء آخر ، أخذت الثورة شعارها (١) .

ولم نكن على استعداد ..

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها .. ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير ..

---

(١) شعار الثورة النظام ــ والاتحاد ــ والعمل ، وقد حلل الاستاذ عباس محمود العقاد ووازن بينه وبين شعار كل من الثورة الفرنسية والثورة التركية ، والثورة الروسية ، والثورة الصينية ، وأسهب في تعليل كل شعار منها ومدى انطباقه على واقع كل ثورة من تلك الثورات . انظر « فلسفة الثورة في الميزان » للاستاذ عباس محمود العقاد .

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر .. !

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة أخرى !

ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله الا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس .. !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالالوف ومئات الالوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل ، لكان الأمر منطقيا ومفهوما ولكن معظم ما كان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام .. كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد الأحقاد والبغضاء ..

***

ولو ان احدا سألنى فى تلك الايام : ما هو اعز امانيك ؟ لقلت له على الفور :

ــ أن أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى آخر .

وأن احس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ..

وأن ارى مصريا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر ..

وكانت هناك بعد ذلك كله انانية فردية مستحكمة ..

كانت كلمة « أنا » على كل لسان ..

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وكانت الدواء لكل داء ..

وكثيرا ما كنت أقابل كبراء ــ او هكذا تسميهم الصحف ــ من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم فى مشكلة التمس عنده حلا لها فلم اكن اسمع الا انا ..

مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، اما الباقون جميعا فهم فى العلم بها أطفال يحبون ..

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، أما الباقون جميعا فما زالوا فى «ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت اقابل الواحد من هؤلاء ، ثم اعود الى زملائى فأقول لهم فى حسرة :

ــ لا فائدة .. هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى جزائر هاواى لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة « أنا » .. !

***

اذكر مرة كنت أزور فيها احدى الجامعات .. ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامى منهم كثيرون .. وتكلموا طويلا ..

ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لم يقدم لى أفكارا ، وانما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه ، وكفاياته الخليقة وحدها بعمل المعجزات ، ورمقنى كل واحد منهم بنظرة الذى يؤثرنى على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود .. !

واذكر انى لم اتمالك نفسى فقمت بعدها اقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الأول أن يعطى كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم ــ كما يجب ــ عملكم الأساسى ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

ان كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لاتنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه . »

ولم اشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن اقول لهم انهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذى دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم .

ولم اشأ أن اقول لهم ان معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم من ناحيتهم كجنود محترفين ..

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم ان ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم اشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتى وزملائى ..

***

واعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيهـــا الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى ــ الى حد ما ــ الصـــورة الكاملة لحالة الوطن ، واكثر من هذا أعطتنى الجواب على السؤال الذى قلت انه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ــ نحن الجيش ــ بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو .. ؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب او مفر .. !

وانا الآن استطيع أن أقول اننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة ..

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه ..

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد ســـبقتنا على طريق التقدم البشرى شـــعوب مرت

بالثورتين ، ولكنها لم تعشهما معا ، وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد .

***

وهذه التجربة الهائلة مبعثها ان لكل من الثورتين ظروفا مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعا ..

ان الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الامة وترابطها وتساندها ونكرانها للذاتها فى سبيل الوطن كله .

والثورة الاجتماعية ،من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، وتصارع المواطنين مع انفسهم افرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأنانية ..

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين : ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف ، وثورة تفرض علينا — برغم ارادتنا — أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا الا فى نفسه ..

وبين شقى الرحى هذين — مثلا — ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه ، والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

شحب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم اقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة سـنة ١٩١٩ ؛ والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب ان تقوم قوة يقرب ما بين افرادها اطار واحد يبعد عنهم ، الى حد ما ، صراع الأفراد والطبقات ، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون فى استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لها عملا سريعا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش ..

وهكذا لم يكن الجيش – كما قلت – هو الذى حدد دوره فى الحوادث ، وانما العكس كان أقرب الى الصـحة ، وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن ..

***

ولقد ادركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على ادراكنا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فاننا لم نكن نسـتطيع ان نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع ان نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن .. وكذلك لم يكن فى اسـتطاعتنا أن نقوم على طريق التـاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور الثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول تذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى .. !

وكان لابد ان نسير فى طريق الثورتين معا ..

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية ، فخلعنا فاروق عن عرشه ، سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية ، فقررنا تحديد الملكية .

ومازلت حتى اليوم اعتقد انه ينبغى أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكى نستطيع أن

نحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد مهما بدا فى بعض الاحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى :

« انت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وانت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الفدر أن تستمر فى عملها . »

استمعت اليه .. وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، ازمة شقى الرحى ..

ازمة تقتضينا أن نتحد صفا واحدا وننسى الماضى ..

وثورة تفرض علينا ان نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضى ..

ولم أقل لهذا الصديق : ان منفذنا الوحيد الى النجاة ، أن نحتفظ ـ كما قلت ـ بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير فى طريقين فى وقت واحد .

ولم أشأ انا ذلك ، ولا شاءه كل الذين شاركوا فى ثورة ٢٣ يوليو ..

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها اليوم ..

الجزء الثاني

العمل الايجابى . الحماسة لاتكفى . الرصاص يتكلم . صراخ وعويل في الليل . ما أسهل ان يراق الدم . جذور في التاريخ . يا عزيز يا عزيز . الفولاذ ينهار . سوف يتبلور هذا المجتمع . اعصاب الناس وعقولهم . اغضبنا الجميع . هذه حدودنا وذلك واجبنا .

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ٠٠ ؟

وما هو الطريق اليه ٠٠ ؟

الحق أنى فى معظم الأحيـــان كنت أعرف الاجابة على السؤال الأول وأخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وانمـا كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله ٠

أما الاجابة على السؤال الثانى « طريقنا الى هذا الذى نريد » فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شىء آخر ، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل ٠٠ !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية ٠٠ ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى ٠٠

أما الطريق الى التحرر والقــــوة ٠٠ فتلك عقدة العقد فى حياتنا ٠

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت اواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظـلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها ٠٠ !

***

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمـــل الايجابى يجب أن يكون طريقنا ٠٠ ولكن أى عمل ٠٠ ؟ !

ولقد تبدو كلمة « العمل الايجــابى » على الورق كافية لتحل المشكلة ، ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها جيلنا وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ، لم تكن كافية ٠٠ !

وفى فترة من حياتى كانت الحماسـة هى العمل الايجابى فى تقديرى ٠

ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الايجـــابى وأصبحت أرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة وانما على أن أنقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين ٠

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون ٠٠ ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور ٠٠

ثم أصبح العمل الايجابى فى رأيى أن يجتمع كل زعمـاء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحدا واحدا تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمـة واحدة ٠٠ ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعة لايمانى ، فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ ٠

***

وجاءت الحرب العالمية الثانية ٠ وما سبقها بقليل على شبابنا.. فألهبته وأشاعت النار فى خلجاته فبدأ اتجاهنا ، اتجـــاه جيل بأكمله ، يسير الى العنف ٠

وأعترف ـ ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف ـ أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه ، اذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا ٠

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أعد جرائمهم ، وأضع نفسى موضـــع الحكم على أعمالهم وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم ٠

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجال الدين الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا ..

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير ٠

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير ٠

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام ، وما أكثر الليالى التى سهرتها أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة ٠

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة ٠

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به ٠٠ !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته ٠

والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا ٠

كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن الشك ومن العلم ومن الجهل ٠٠

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خيالى ، تخبو جذورها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الايجابى المنتظر ٠٠

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه ٠

كنا قد أعددنا العدة للعمل ٠٠

واخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق ٠٠

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل ٠

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى الليل ٠٠

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، ورتبنا فرقة

الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ورتبنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح ·

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ ··

وسار كل شيء طبقا لما تصورناه ·

***

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى اماكنها التى حددت لها ، وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص ··

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة . وبدأت عملية الافلات الى النجاة ، وأدرت محرك سيارتى وانطلقت اغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه ··

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة ··

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى بسرعة ··

ثم أدركت شيئا عجيبا ··

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى ·

والصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة ·

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت· ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى ·

ووصلت الى بيتى واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى · وفى قلبى وضميرى غليان متصل ··

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعى ··

ولم أنم طول الليل ·

بقيت مستلقيا على فراشي في الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطرى على الأصوات التى تلاحقنى ٠

• أكنت على حق ؟ ٠

وأقول لنفسى فى يقين :

ـ دوافعى كانت من أجل وطنى ! ٠

• أكانت تلك هي الوسيلة التى لا مفر منها ؟ ٠

واقول لنفسى فى شك :

ـ ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل ؟ ٠

• أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟ ٠

وأقول لنفسى فى حيرة :

ـ أكاد أحس أن المسألة أعمق ٠

• اننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن يمضى ، أم يجيء من يجب أن يجيء ؟ ٠

وأقول لنفسى واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة :

ـ بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء ٠٠ اننا نحلم بمجد أمة ٠ ويجب أن يبنى هذا المجد ! ٠

وأقول لنفسى ومازلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات ٠

ـ واذن ؟ ٠

وأسمع هاتفا يرد على :

ـ واذن ماذا ؟

وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة :

ــ اذن يجب أن يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابى الذى يجب أن نتجه اليه .. المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ؛ ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى ما زالت أصداؤها ترن فى أعماقى .

ووجدت نفسى أقول فجأة :

ــ ليته لا يموت ! .

وكان عجيبا أن يطلع على الفجر ؛ وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء ! .

وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح .. وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة .

***

ولكن تلك لم تكن المشكلة الاساسية .

وانما المشكلة الاساسية .. هى العثور على العمل الايجابى !

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى عمل شىء أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى فى الصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ؛ ثورة منبعثة من قلب الشعب ؛ حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه ؟ .

والثانى : وما هو طريقنا اليه ؟ .

وقلت: ان الاجابة على السؤال الأول أمل انعقد عليه الاجماع .

أما السؤال الثانى : طريقنا الى الذى نريد أن نصنعة ـ فهو الذى أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى يوم ٢٣ يوليو ! .

***

ولكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه ؟! .

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فان تلك لم تكن الا الخطوة الأولى على الطريق ..

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ؛ ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ؛ وأن الربيع قد جاء .. بل لعل العكس هو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ؛ تحمل الى فى نفس الوقت عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث : «انى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة زاحفة» .

وقلت : اننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة ؛ وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المتراصة المنتظمة .

ورسمت أيضا فى ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ؛ كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول ان تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى !

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائى فتتحقق احلامنا .

ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات اجيال .

***

ولقد كان من السهل وقتها ـ ومازال سهلا حتى الآن ـ أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى اليها مثل هذا العمل ؟.

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أى مشكلة من المشاكل هو ردها الى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر الى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن .

ولقد قلت مرة انى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ، فذلك آخر ما يجرى اليه خيالى ، وقلت انى سأحاول محاولات تلميذ مبتدىء فى التاريخ .

* * *

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيرا ما كنا معبرا للغزاة ؛ ومطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا الا اذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأيى أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعونى ؛ ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ؛ ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبتها .

وفى رأيى أيضا أنه لا يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى (١) ؛ فان تلك الظروف هى التى وصلت بنا الى ما نحن عليه الآن .

---

(١) المقصود هنا بالعصور الوسطى : القرن العاشر الميلادى وما بعده « القرن الرابع الهجرى » ، حين بدأ الوهن يدب فى جسم الدولة الاسلامية وتنازعتها مطامع الامراء وفى هذا التاريخ نفسه بدأت الغزوات الصليبية .

واذا كانت الحــــروب الصليبية بداية فجر النهضــــة فى اوروبا (١) فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ؛ وخرج بعدها فقيرا ؛ معدما ، منهوك القوى .

---

(١) بدأت الحروب الصليبية اول مابدأت في أسبانيا حين انفرط عقــد الدولة الاموية في الاندلس ، وتوزعها ((ملوك الطوائف)) من حكام الولايات وامراء المدن .. فرآها الاسبان فرصة سانحة للقضــاء على الاســلام في تلك البــلاد ، واستثاروا حماسة المسيحيين ابناء جلدتهم ومن جيرانهم في فرنسا ومن ذوى دينهم في ايطاليا وأواسط اوروبا لحرب المسلمين حتى يجلوا عن شبه جـزيرة الاندلس فنشأت المعارك الصليبية الاولى في تلك البقاع ، ثم استمرت ..

ثم انتقل صدى هذه الدعوة الى فرنسا وايطاليا وأواسط اوروبا . فاذا دعوة اخرى مماثلة تتردد هناك بقصد اجلاء المسلمين عن بيت المقــدس وبــلاد الشام فينتظم تحت رايتها الالاف من ذوى العصبية المسيحية ويتخذون سبيلهم في البر والبحر الى الارض المقدسة ، ومن ثمة كانت تسميتها بالحروب الصليبية، على أن هذه الحروب التى بدأت في القرن العاشر استجابة لدعوة صليبية لم تلبث أن انقلبت الى حرب توسع واستعمار ، أو الى مغامرات فرســان يطلبون المجد أو يطمعون في الغنيمة ، فانتظم تحت رايتها الافاقون والسفاكون والطامحون الى الامارة والمولعون بالمغامرة وتجارة الرقيق واصحاب الشهوات ، الى طوائف من ذوى الغفلة الدينية الذين يستجيبون لكل دعوة باسم الدين طمعا في المثوبة دون بحث او تحقيق وكان بين المغامرين في هذه الحروب ملوك وامراء فرسـان لايؤمنون بالله خالق ولايتورعون عن منكر ولايعرفون فرق مابين دين ودين ، وانما هى معارك يخوضونها ليكسبوا مجدا وسمعة ، وليصيروا حكاما وامراء حين لا مطمع لهم في الحكم والامارة ببلادهم . او ليتسعوا فيما يملكون فيصير لهم عرش هنا وعرش هناك .

وقد استطاع بعض أولئك المغامرين أن يحققوا بعض آمالهم ، فانشئت على امتداد السواحل الشامية أو في قلب البــادية بعض امارات ، صليبية ، يجلس على عروشها بعض اولئك المغامرين لتنشأ بين بعضهم وبعض فيما بعد حـــروب ومنافسات دموية . لايذكر فيها اسم الله ولا اسم الصليب ... =

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس(١) ٠

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء ٠

= وقد وقع بيت المقدس في يد بعض أولئك المحاربين الصليبيين وظلت تحت حكمهم مائة عام ، ثم استردها المسلمون على يد صلاح الدين ...

على أن وقوع بيت المقدس في أيديهم ـ وكانت هى الهدف والغاية ـ لم يحملهم على انهاء الحروب الصليبية ، فظلت حملاتهم متوالية على سواحل مصر وتونس وغير مصر وتونس من بلاد المسلمين .

وكان على مصر أكبر العبء في رد هؤلاء الغزاة المعتدين ، وبكفاحها ارتد الصليبيون مدحورين فلم تثبت لهم قدم في بلد من بلادنا ، بعد حروب دامت ثلاثة قرون .. وقد كان اتصال أوربا بالشرق في الحروب الصليبية ، سببا من أسباب النهضة الاوربية التى استكملت مظاهرها في القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد رأى الاوربيون في بلادنا من صور الحضارة ما فتق أذهانهم وكشف الغشاوة عن عيونهم وفتح لهم آفاقا من المعرفة ظهرت آثارها بينهم بعد قليل ، فكانت هذه الحروب خيرا لهم وشرا علينا .

(١) ولم تكد مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحفون من وراء سد الصين قد بلغوا في زحفهم حدود بلادنا ، بعد أن دمروا في طريقهم الينا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئت خيلهم بلاد الشام ، ولم يبق الا أن يأكلونا كما أكلوا كل الامم التى اعترضت سبيلهم منذ خرجوا من مجاهلهم يجتاحون البلاد بالويل والدمار ...

وقد أراد الله أن ينقذ الحضارة ويرد السلام الى الارض بأيدى المصريين ، فانتصرنا على المغول في موقعة ((عين جالوت)) من أرض فلسطين فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ولكن هذا الانتصار كان فاتحة لهم جديد ، فقد مكن للمماليك الشركس ـ وكان منهم قادة الجيش الذى انتصر على المغول ـ فصار اليهم عرش مصر يتوارثونه مملوكا عن مملوك ، ثلاثة قرون ، حتى غلبهم الغازى العثمانى على ما كان في أيديهم من السلطة في القرن العاشر الهجرى ـ السادس الميلادى ـ وفقدت مصر استقلالها وحريتها .

وكانوا يساقون اليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا ·

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة ·

فى تلك الفترة تحول وطننا الى غابة تحكمها وحوش ضارية· كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم فى الغنيمة .

وكانت أرواحنا ؛ وثرواتنا ، وأراضينا ؛ هى الغنيمة ! ·

* * *

وأحيانا حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ؛ أحس بالأسى يمزق نفسى ازاء تلك الفترة التى تكون فيها اقطاع طاغ ؛ لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا ؛ سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك فى أعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن نكافح طويلا لكى نتغلب عليه ·

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيرا لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية ·

أحيانا مثلا يخيل الى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع وأقول لنفسى ولبعض زملائى :

ولماذا لا يقدمون ؛ ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وضعوا فيها أنفسهم ؛ ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيرا لهذا الا رواسب حكم المماليك ·

كان الأمراء يتصارعون ؛ ويتطاحن فرسانهم فى الشوارع ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لا دخل لهم فيه ··

وأحيانا يخيل الى أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا فى اطار الوهم ما نريده ؛ ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه ..

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الرأى والأمر فيه ..

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيرا ما هتفت بها طفلا صغيرا ، حينما كنت أرى الطائرات فى السماء ..

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخد الانجليز » ..

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ؛ ولم تكن يومها منصبة على الانجليز ؛ وانما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وان تغير اسم الظالم ؛ فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلى .. اهلك العثمانلى ! » .

* * *

وبنفس الروح التى لم تتغير جرى المعنى على لساننا وان تغير اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقا للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين .. !

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وان حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر ..

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثه .. !

وبدأت اليقظة بأزمه جديدة ..

لقد كنا – في رأيي – أشبه بمريض قضى زمنا في غرفة مغلقة؛ واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة ، حتى كادت أنفاس المريض تختنق ..

وفجـأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ؛ وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقا.

لقد كان في حاجة الى نسمة هواء .. فانطلق عليه اعصـار عات وأنشبت الحمى أظفارها في الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ماحدث لمجتمعنا تماما ؛ وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر .

كان المجتمع الأوروبى قد سار في تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى الى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة أثر أخرى .

اما نحن ، فقد كان كل شيء مفاجئا لنا ..

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة ..

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ؛ خصوصا بعد تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح (١) ؛ فاذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ؛ ومعبرا الى مستعمراتها في الشرق والجنوب .

---

(١) كانت مصر الى القرن الخامس عشر الميلادى هى طريق المواصلات الوحيد بين أوروبا والشرق ، فكانت المتاجر الاوروبية تصل الى موانينا في البحر المتوسط ثم تعبر البلاد برا الى موانى البحر الاحمر . ثم تستانف رحلتها البحرية الى الهند والشرق الاقصي ، ولم يكن ثمة طريق غير هذا بين أوروبا والشرق اذ كانت السفن البحرية لم تعرف بعد طريقا تسلكه في المحيط الاطلسي الى جنوب افريقيا لتنفذ من ثمة الى المحيط الهندى ، ثم اكتشفت البرتغال طريق راس الرجـاء الصالح في القرن الخامس عشر ، فتحولت اليه تجارة أوروبا ، وبدأ عهد العزلة في مصر .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا اليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها •

كانت أرواحنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر ؛ وان سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ؛ ثم القرن العشرين ••

وكانت عقولنا تحاول ان تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق مروعا مخيفا ••

❊ ❊ ❊

وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا ، فان الفارق بين الفرد والفرد الكبير ؛ والفارق بين الجيل والجيل شاسع •

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وان اجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه، ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ؛ وأننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا ••

اننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ؛ وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق •

وأنا أعتقد ، دون أن أكون فى ذلك متملقا لعواطف الناس ؛ أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ؛ وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا ؛ ولكننا صمدنا للزلزال العنيف •

صحيح اننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ؛ ولكننا بصفة عامة ؛ لم نقع على الأرض •

أنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى العاصمة ••

الأب مثلا معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الانجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .. أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها والتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

ــ سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ؛ وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ؛ انما ينبغى أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال .

تلك اذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ، فاذا أضيف الى هذه الجذور الاجتماعية ؛ ظروف من أجلها طردنا فاروق ، من أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب ــ اذا أضيف هذا كله ، لخرجنا الى الافق الواسع الذى نعمل فيه ؛ والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية ؛ وتزمجر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت انه من الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم ؛ مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق .

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ؛ لايزيد ولاينقص .. الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا ؛ وطال عليها الطريق ؛ وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ؛ وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة ؛ كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه .

وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

اننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

انما كل عملنا ان نحدد معالم الطريق كما قلت ؛ وأن نجرى وراء لشاردين فنردهم الى حيث ينبغى أن يبدأوا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ؛ وكنت اعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

ولقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ؛ وأن نخاطب عقول الناس وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه !

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ؛ وما أصعب الحديث الى عقولهم .. !

وغرائزنا جميعا واحدة ؛ أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة ؛ فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها ، أما العقل فتركوه هائما على وجهه فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشىء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لا تخرج عن حد الوهم والخيال ؛ أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز ٠٠ داهية تاخد الانجليز » ٠

تماما ؛ كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يا رب يا متجلى ٠٠ اهلك العثمانلى » ٠

وبعدها لا شىء ٠٠ !

لكن أكانت تلك مهمتنا التى شاءها لنا القدر ٠٠ ؟

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلا اذا سرنا فى هذا السبيل؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثـورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها ؛ وقدرتها على الحركة السريعة ٠ وأضيف الآن الى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها ٠٠ !

والا فاننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها ٠

* * *

وكثيرا ما يجيئنى من يقول لى :

ـ لقد أغضبتم كل الناس ٠٠

وعلى مثل هذه الملاحظه أرد دائما :

ـ ليس غضب الناس هو المؤثر فى الموقف ؛ وانما السؤال : هل كان الذين أغضبناهم يعملون لصالح الوطن أو لغيره ٠٠ ؟

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك ٠٠

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ٠٠ ؟!

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء ٠٠ !

ولكن هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ‥ ؟

وأنا أدرك أننا أغضبنا عددا كبيرا من الموظفين ‥

ولكن هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصص أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الانتاجية ‥ ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ‥ وليكن ـ أيضا ـ أن يجىء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساسا ‥ !

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم ‥ ولكن ما هو الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ‥ ‥ ؟

***

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ؛ ولا مفر أمامنا من أن نقوم به مهما كان الثمن الذى قد ندفعه ٠

ولم نخطىء أبدا فى فهم هذا الدور ؛ ولا فى ادراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا ‥

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضى ورواسبه ؛ مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شىء ٠

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا ٠

من أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ، ذهبنا الى عدد من قادة الرأى فى مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

ـ ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته ٠

وكانت لجنة وضع الدستور ٠

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ذهبنا الى أكبر الاساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

ـ نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه ٠

وكان مجلس الانتاج ٠٠

تلك حدودنا لم نتعداها ..

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما كان الثمن .. واجبنا .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة فرض لازم عليهم ؛ وليس لنا أن نستأثر به دونهم ؛ بل ان مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر ٠٠ مصر القوية المتحررة .. !



الجـــزء الثالث

بعد غيبة ثـلاثة شهور . الزمان والمكان . القـدر لايهزل . دوائر ثلاث . دور يبحث عن بطله . فلسطين ليست بلدا غريبا . لقاء مع فقر فلسطين . اغلى اسرار الطـيران . افكار في ميـــدان القتال . الارض والنجوم . نظرة الى مذكرات وايزمان . الكفاح الواحد وعناصره . القوة بالارقام . مسئولياتنا في افريقيا . الحكمة . الحقيقة في الحج .

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة ..

أعود اليها بعد غيبه طويلة امتدت الى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؛ فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ؛ ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ؛ سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام ؛ تضيفها اليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما هى الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ؟ .. وما هى علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك ؛ فى الجزء الأول ؛ ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثـورة .. ؟

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد، وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ؛ وعن الثورة فى تاريخ أمتنا ؛ وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة ..

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ؛ وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ؛ سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضى ، أو فى تطلعنا المفعم بالأمل الى المستقبل .

واذن ؛ فقد كان حديثى فى الجزأين السابقين عن الزمان ؛ ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن ؛ فليكن الحديث فى هذه المرة عنه ..

وليس هدفى ان أدخل فى بحث فلسفى معقد عن الزمان والمكان ؛ وانما الذى لا شك فيه هو أن العالم كله ، وليس وطننا فحسب ؛ هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

واذا كنت أقول أننا فى تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ؛ فاننا أيضا وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان ٠

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود الى القرن العاشر ؛ نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا مضحكه ، ونتوه فى أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطيافا من الظلام خلت من كل شعاع ٠

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعه من الاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على اننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة فى تيه الباسفيك ٠

الزمان ، اذن ، يفرض علينا تطوره ٠٠

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته ٠

ولقد حاولت مرتين ان امضى مع الزمان ٠ فلأحاول هذه المره ان أتجول فى عالم المكان ٠

وثمة شىء يجب ان نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى فى هـذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا ٠

ان قال لى احد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها ، فانى أختلف معه ٠

وان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضا اختلف معه ٠

ولو كان الامر كله محصورا فى حدود عاصمتنا أو فى حدود بلادنا السياسية ، لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب ، وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر مانستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته ، تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب ٠

ولقد مضى عهد العزلة ٠٠

وذهبت الايام التى كانت فيها خطوط الاسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل ٠

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خـارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مفر امام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب ..

وانا اجلس احيانا فى غرفة مكتبى واسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع اسائل نفسى :

ــ ماهو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور .. ؟

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنـا من أن يدور عليها نشاطنا وان نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لايهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة . ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منهـا ، امتزج تاريخنا بتاريخهـا ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام .. ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء ايضا أن يكون فبها اليوم صراع مروع حـول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد .. ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا وأياه روابط لاتقربها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ .؟

وكما قلت مرة : أن القدر لايهزل ..

فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غرب آسـيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق أفريقيا ، ويطل من عل على القارة السوداء التى يدور فيهـا اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لاتحد .

وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامىالذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة ــ تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وأنقذاته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت (١) .

كل هذه حقائق أصـيلة ذات جـذور عميقة فى حيـاتنا ، لانستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها .

***

ولست أدرى لماذا أذكر دائما ، عندما أصل الى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شـاردا مع الافـكار . قصـة مشـهورة للشاعر الايطـالى الكبير « لويدجى بيراندلو » اسماها (ست شخصيات تبحث عن ممثلين) . . ؟!

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسـهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

---

(١) دمر المغول في طريقهم الينا كل مقومات الحضارة في البلاد التى وطئتها اقدامهم ، ثم دمرتهم مصر ، فصار عليها وحدها أن تحمى تراث الحضـارة وأن تنشر آثارها فقد ذهب كل التراث ، في كل البلاد ، ولم يبق الا مصر .

وقد عرفت مصر واجبها في هذا الشأن ، فأعادت الخـلافة العباسـية ، وقوتها ، وحفظت لها رسومها وحقها في التوجيه والنصح والارشاد ، ولاءمت بين حالة مصر السياسية في ذلك الزمان وبين واجبها هذا الجديد ، فلم تلبث أن صارت حاضرة الاسلام ، عليها عبء التوجيه العام في كل بـلاد المسلمين ، ومن علومها وفنونها وحضارتها يقتبس المسلمون في شتى بقاع الارض ، وباسمها يتغنى كل عربى وكل مسلم في الشرق والغرب .

وان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم نجد بعد الابطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدري لماذا يخيل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراهائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فان أحدا غيرنا لايستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شانه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذهالمنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر .

***

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك (١) .

---

١ ـ (ا) حين زحف الصليبيون على بلادنا ، كانت فلسطين ، ولبنان ، وسورية ، ومصر ، وشمالافريقية ، هدفا مشتركامن اهداف الاستعمارالصليبى.

(ب) وحين زحف المغول على بلاد المسلمين والعرب ، كانت مصر هدفالمغول الاخير ، بعد ان دمرت بغداد ووطئت بلاد الشام جميعا .

(ج) وحين اغار العثمانيون على بلادنا وسلبونا استقلالنا فى القرن السادس عشر ، فعلوا مثل ذلك بالشام ، والعراق ، والجزيرة العربية ، وشمال افريقية ، الى حدود مراكش . =

وامتزجت هـذه الدائرة معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة الى الكوفة ، ثم الى القاهرة (١) ثم جمعها الجوار فى اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العربى بدات تتسلل الى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى اضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنا قوميا فى فلسطين ، اغتصبته ظلما من أصحابه الشرعيين (٢) .

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخرج فى حماسة ولماذا اغضب لهذه الارض التى لم أرها ؟ لم أكن أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

= (د) وحين بدا الاستعمار الاوربى ـ بمصطلحاته الجديدة ـ يبسط سلطانه على بلادنا ، لم يستثن بلدا واحدا من بلاد العرب .

لقد كنا جميعا هدفا مشتركا في كل مراحل التاريخ .

(١) نشأ الاسلام بمكة ثم هاجر النبى عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، فصارت هى عاصمة الاسلام في عصر النبى والخلفاء الثلاثة من بعده ، ثم صارت الكوفة هى عاصمة الاسلام في خلافة على ـ ثم صارت دمشق ، ثم صارت بغداد ، ثم انتقلت الخلافة والخليفة الى القاهرة في القرن السابع الهجرى ، بعد أن دمر المغول بغداد .

(٢) كان أول عدوان بريطانيا على حق العرب في فلسطين ، ان وزيرها « بلفور » وعدد اليهود في ٢ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، بأن يتيح لهم وطنا قوميا في فلسطين ثمنا لما أدوا لبريطانيا من خدمات في الحرب العالمية الاولى ولكنه ثمن يؤديه من غير مايملك ..

ومنذ ذلك التاريخ ، اعتبر يوم ٢ ديسمبر من كل عام ، يوما مشئوما من أيام العرب يعلنون فيه سخطهم على غدر بريطانيا ، وحرصهم على الاحتفاظ بفلسطين عربية لاهلها .

تم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع عندما اصبحت طالبا فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حمـلات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت منها فى القرن الاخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بـدأ الفهم يتضح وتتكشف الاعمـدة التى تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب فى كلية أركان الحـرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس .

***

وأذكر يوما ، عقب صـدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سـنة ١٩٤٧ ، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا (١) واستقر رأيهم على مساعدة المقـاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسـطين ، وكان ما يزال يعيش فى الزيتون وأقول له :

ــ انكم فى حاجة الى ضباط يقودون المعـارك ويدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عـدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء ..

وقال لى الحاج أمين الحسينى أنه سعيد بهذه الروح . ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

---

(١) لما اشتدت مقاومة العرب في فلسطين للاستعمار الصهيونى ، أرادت بريطانيا أن تعالج الامر على وجه ما ، لتكسر حدة المقاومة العربية ، فاستصدرت قرارا من الامم المتحدة في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، فأبى العرب أن تمزق وحدة بلادهم ، وازدادوا هياجا وثورة وثارت لثورتهم البلاد العربية جميعا .. وخلال هذه الثورة ، كان الضباط الاحرار في مصر يدبرون أمرهم ليقوموا بواجبهم في الكفاح من أجل عروبة فلسطين .

ثم قال الحاج أمين :

ـ سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض .

ولم نسكت ..

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس . وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم الى مجلس قيادة الثورة .

وأذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار :

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى (١) . وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تملك طيرانا يساعدها فى المعركة ويرجح النصر الى كفتها ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم يتردد حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادى ، وانما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة .

---

(١) هو مجاهد عربى ، اصله من لبنان ، وكان له بلاء مشهود فى معارك فلسطين وهى لم تزل تحت الانتداب البريطانى ثم كان قائدا لقوات التحرير العربية فى حرب فلسطين .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة – بما فيها سلاح الطيران – حذرا متيقظا ٠

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها الى تفاصيل الخطة ٠

بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ٠٠ وبرز فيهـا نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ٠

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر ٠

يعرفون أن الطائرات وقوادهـا قد أعدوا ليوم تجىء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقوا بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الارض المقدسة ٠ ثم يتجهون بعـد ذلك الى مطار قرب دمشـق ، ينزلون فيه ويترقبون الاحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيـار اشترك فى هذه العملية وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ٠

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار – والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشـتركين فى السر الكبير – أن هذه المخاطر الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، انما كانت وعيا ظاهرا لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود أخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة ٠

ولم تتم الخطة يومها ٠٠ لأننا لم نتلق الاشـارة السرية من سوريا ٠

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين ٠

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين الآن ، فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وانما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

" لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة ، واذن فهذه الشعوب جميعا تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة واذن فهى جميعا ، كل منها فى بلادها ، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها الى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

ولقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية (١) وفى جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان .

وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيدا الى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها .

وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .

هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

---

(١) منطقة الفالوجة ، وكان لحاميتها بلاء عظيم فى الدفاع عنها ، فقد صمدت لحصار العدو اشهرا بلا زاد ولا عتاد ، حتى ضاق المحاصرون ذرعا ولم ينفد صبر المحصورين أو تضعف نفوسهم ، وقد عرفت مصر لابطال الفالوجة بلاءهم فى هذه المعركة فاستقبلتهم استقبالا عظيما وكان اسمهم على كل لسان فى مصر وفى كل بلد عربى ... وكان بينهم جمال عبد الناصر ..

وهذه قوات أخرى لنا ‥ هي أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وان بقى لها مجال للمناورة المحدودة ·

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منهـــا الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنـــا نحن القابعون فى منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى الســـلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين·

هذه هى جيوش اخواننا ‥ جيشا جيشا ‥ كلها هى أيضا محاصرة ‥ بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكوماتها ‥ لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين ·

وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنهـــا عمدا حقيقة ما يجرى ، وضـــللتها حتى عن وجودها نفسه ·

وأحيـــانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الارض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى الحدود الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ ·

وكان ذلك عندما التقى فى تجوالى فوق الاطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصـــار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسى :

ـ قد يحدث هذا لابنتى ·

كنت مؤمنا بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ـ ومازال احتمال حدوثه قائما ـ لأى بلد فى هذه المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن ·

ولما انتهى الحصار وانتهت المعـــارك فى فلسطين وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلا واحدا ·

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى ·

كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض ·

كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد وغيرها ·

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل·· بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعا ·

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى ·

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا اثرا من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى فلسطين ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أى أمل فى واقع ·

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقى وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طـــابع خاص تستوقفنى فيه ·

يستوقفنى قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العـــالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا ·

اما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل ·

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف ·

ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان :

« ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل (١) يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الارض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

وانـنا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لانرسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قوميا .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه فى المهد ودفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ، ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى .

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور :

ـ لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا .. ؟

وقلت لبلفور :

ـ ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن اغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق اننا

---

(١) هرتزل او هرزل : صاحب فكرة الصهيونية الاولى . انظر كتاب . هذه هى الصهيونية . من مجموعة « اخترنا لك » .

اذا اغفلنا الجانب الروحى فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى ..

ثم قلت لبلفور :

ـ ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن ، هل تقبل .. ؟

ويستوقفنى أيضا قول وايزمان :

« وعدت الى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعى أننى دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانونى المشهور ابن كوهين ، وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان ايريك فوريس أدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

وقال كيرزون أنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال أنه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين »

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمـــان فى « التجـــربة

والخطأ » ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها ٠٠ !

***

وأعود الى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القـــوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئى ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقها فى «الفالوجة» وبجيوشنا جميعا وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا نتلقى منهـا الأوامر ٠

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى :

ـ مادامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشـــاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد ٠٠ والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ـ فلماذا تتشتت جهودنا ٠٠ ؟

ثم زادتنى تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الكفاح الواحد وضرورته ٠

فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع ٠

وأعترف انى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تســـد الطريق الى الكفاح الواحد ولكنى بدأت أومن بأن هذه العقبـات نفسها ينبغى أن تزول لانها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيرا فى اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى (الشك) وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد ٠٠ !

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى أقوله ٠٠

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه ، بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل لى كل ما فى قلبك ، وأنظر الى وفى عينى ولا تدر وجهك .. !

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ولكن المؤكد أنه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، ايجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت لمواجهة الكفاح الواحد .

***

ولست اشك دقيقة أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول : أننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا .

اننا نخطىء فى تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب :

أول هذه المصـــادر أننا مجموعة من الشـــعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مـــادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضـــارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصــــدر الثانى فهو ارضـــنا نفسها ومكانها على خريطة

العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ومعبر تجارته ، وممر جيوشه ٠

يبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها ـ المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج ـ تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة .. أو حياة ..

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا ٠

ولقد قرأت أخيرا رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ، وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها واحصائياتها (١) ٠

◆ تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال ٠

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا فى سنة ١٩٣٦ ٠

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة ٠

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات فى جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت ٠

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع :

---

(١) انظر كتاب البترول والسياسة العربية من مجموعة « اخترنا لك » .

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا ٧٨ سنتا .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

◆ ان عاصمة انتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التى مازالت آبارها بكرا والتى مازالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة .

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليهـــا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الافريقية ، قلت دون استفاضـــة ودون اسهاب : اننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين ·

لا نستطيع لسبب هام وبديهى ، هو أننا فى أفريقيا (١) ·

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ·

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء ·

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان — الشقيق الحبيب — تمتد حدوده الى أعماق أفريقيا ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحســـاسة فى وسطها ·

والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبيـــة يحاول الآن اعادة تقسيم

---

(١) انظر الكتب الآتية من مجموعة « اخترنا لك » :

- زعماء العصابات الاستعمارية .
- افريقيا حلم الاستعمار البريطاني .
- اضواء على الحبشة .
- شمال افريقية في الماضي والحاضر والمستقبل .
- جنوب افريقيا جنة البيض وجحيم الملونين .

خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه القاهرة معهدا ضخما لافريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من كل انحاء الارض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا اينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير (١) .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى .

– يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة الى دخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة انحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة

---

(١) توفى الملك عبد العزيز آل سعود ، فى شهر ربيع الاول سنة ١٣٧٤ (نوفمبر سنة ١٩٥٣) .

لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ·

يجتمعون خاشعين ·· ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع ·· لكن عاملين ، مستضعفين لله·· ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حالمين بحياة أخرى ·· ولكن مؤمنين ان لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة ··

وأذكر أننى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سعود ، فقال لى الملك :

ــ ان هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية فى الحج ·

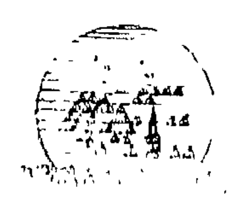
وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى ·

وحين أسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، واكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الارض المتباعدة ــ حين أسرح بخيـــالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن ان يحققها تعـــاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به ·

ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه وهذا هو مسرحه ·

ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به ·





الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤